شخصية البحتري[1]

(بمناسبة الاحتفال بذكراه في سبتمبر سنة 1961م)

الاحتفال بشاعر الشام الكبير، ونابغة العروبة الخالد، تكريم لذكراه، وتحية لفنه، والتكريم والتحية يقتضيان الاقتصار على ما يجعل ذكره من أخلاق الشاعر وصفاته. وذلك إنما يتسنى لمن يتحدث مختارًا عن جانب من جوانب سلوكه، أو مزية من مزايا فنه. أما من اقترح عليه أن يتحدث عن شخصيته فالأمر معه جد مختلف. ذلك لأن شخصية الرجل هي صورته المعنوية تركبت من آثار الفطرة والوراثة والبيئة والطبيعة ونمط العيش ونوع الثقافة ولون الحضارة. ولأولئك كله خطوط وألوان وظلال، منها المستقيم والمعوج، والسوي والشاذ، والبارز والمستتر، وبدونها كلها لا تكمل الصورة ولا تتم المعرفة. فإذا صورت البحتري على الطريقة الواقعية التي تعتمد على اعترافاته وشهادة مواطنيه، لا على الطريقة الخيالية التي صور بها هو ممدوحيه، كنت أقرب إلى إرضاء الحق وإنصاف التاريخ. وعذر البحتري في انطباع شخصيته على هذه الصورة حال المجتمع في عصره. فقد كان العصر الثاني من عصور الدولة العباسية الأربعة عصر نزاع على الخلافة وصراع بين الأجناس وصدام بين المذاهب وخصام بين الأسر وتنافس في الثروة والجاه، وتدافق في الترف واللهو، وتورط في الشهوة واللذة. والشاعر الذي يعيش على صلات الخلفاء والرؤساء مقضي عليه أن يساير ويشارك ويهاوي ويحتال، فيخرج من الرأي إلى نقيضه، وينقلب من الرجل إلى عدوه.

---

(1) قلت: إنّ البحتري (821-898)هو أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي، ولد في قرية منبج إلى الشمال الشرقي من حلب و ظهرت موهبته الشعرية منذ طفولته. انتقل إلى حمص ليعرض شعره على أبي تمام، الذي وجهه وأرشده إلى ما يجب أن يتبعه في شعره.ثم انتقل إلى بغداد عاصمة الدولة فكان شاعراً في بلاط الخلفاء: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز بن المتوكل، كما كانت له صلات وثيقة مع وزراء في الدولة العباسية وغيرهم من الولاة والأمراء وقادة الجيوش. بقي على صلة وثيقة بمنبج وظل يزورها حتى وفاته. خلف ديواناً ضخماً، أكثر ما فيه في المديح وأقله في الرثاء والهجاء. وله أيضاً قصائد في الفخر والعتاب والاعتذار والحكمة والوصف والغزل. كان مصوراً بارعاً، ومن أشهر قصائده تلك التي يصف فيها إيوان كسرى والربيع.

شخصية الوليد أبي عبادة البحتري شخصية الإنسان المطبوع والفنان الموهوب، كانت إنسانيته لا يختلف معناها عن معنى الحيوانية في اكتساب القوت لتحيا، واجتناب الأذى لتنجو، وكانت فنيته لا يبعد مداها عن أن تكون وسيلة لهذه الحياة تهيئ لها عدة القوة، وتمد لها أسباب العزة، كما يقول:

لـــي مـــن الشـــعر نجـــوة واعتـــزاز وهجـــوم علـــى الأمـــور الشـــداد

كان الشعر في عصر البحتري للشاعر بمثابة الناب والظفر للسبع، يبتغي الرزق بالمدح، ويتقي الأذى بالهجاء. والذي جعل للشعر هذه الوظيفة تلك الحساسية المرضية التي توارثها العرب للمدح استجابة لدواعي العصبية وطمعًا في خلود الذكر، وكان البحتري وهو صبي يرتع بين أشجار التوت في منبج، أو ينتقل وهو يافع بين مضارب طيئ على الفرات، يرد على سمعه ما تتناقله الأفواه في القرية والبادية عما ينال الشعراء في قصور الخلفاء والأغنياء من الجاه والثراء، وبخاصة مواطنه أبو تمام، فيطمح إلى ذلك، وينظر في نفسه فيجد خاطره يسحُّ بالشعر سحًّا على البديهة دون علم بالعروض إلا ما اكتسب بالسليقة، ولا بصر باللغة إلا ما أخذ عن الأعراب، فيعلم أنه أُوتي الملكة وأُعطي الوسيلة فيقرض الشعر في كل شيء، وينشده في كل مكان.

قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي:

" رأيت البحتري هنا قبل أن يخرج إلى العراق يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في مجيئه وذهابه " ومعنى ذل أن البحتري بدأ يتكسب بالشعر في قريته على هذه الصورة المبتذلة، لأنه قرر في نفسه أن يتصيد رزقه في بحور الشعر تارة من السمك وتارة من اللؤلؤ. وما كان لفتى منبج الطامع الطامح أن يقنع بالبصل والباذنجان، دون اللؤلؤ والمرجان، وهو الذي تمرر منذ صباه على الفقر وقضى العمر كله في جهاده. جاهده بسلاح الشعر وحده لا بالعلم ولا بالعمل. وسلاح الشعر يدركه الفلول في بعض الأوقات لإعراض خليفة أو صدود وزير فلا يعمل، فيضطر إلى التنقل من قصر إلى قصر. أو التحول من بلد إلى بلد، فكانت حياته حياة الطائر الغِرِّيد قوام عيشه حنجرة رخيمة وجناح خفاق ومنقار لاقط، يغني حيث يكون الروض، ويقع حيث ينتشر

الحب. فإذا حل الشتاء وطمر الثلج روضه، وحطم السيل عشه، قطع أجواز الفضاء وأثباج الماء إلى جو آخر يتوفر فيه الحب والأمن والدفء؟

* * * * *

شخصية البحتري ككل شخصية إنسانية لها قوامان: قواما مادي مفتاحه حب المال، وقوام معنوي مفتاحه حب الجمال. وبهذين المفتاحين نستطيع أن نفتح ما استغلق من طباعه، ونفسر ما استبهم من سلوكه.

كان حديث أحلامه ومنتجع أمانيه أن يقتني ضيعة في منبج، فمدح من مدح من السادة والقادة حتى بلغ في عهد المتوكل فوق ما تمنى. ثم صار همه بعد ذلك أن يمدح الولاة والعمال ليعفوا ضياعه من الخراج. قال أحمد بن إسماعيل: كان البحتري يلزم إبراهيم بن المدبر في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه، فأراد يومًا أن يشتري ضيعة جديدة واستماح إبراهيم أن يؤدي عنه بعض ثمنها، فلامه على طمعه وقال له: يكفيك ما تملك من الضياع فقد كثرت وعظمت! فأنشده قصيدة كان قد أعدها بقول في مطلعها: سفاهًا تمادى لومها ولجاجها، حتى بلغ قول فيها:

وما زالت العيس المراسيل تنبري فيقضي لدى آل المدبر حاجها

فأمر له بإتمام ماله.

كان البحتري في سبيل حب المال يبخل به ويحرص عليه. وهل للبخل معنى غير حب المال؟ فما رواه أبو الغوث ابنه، وحكم ابن يحيى، وأبو مسلم محمد ابن الأصفهاني، من حديث شحه على نفسه وتقتيره على خادمه وأخيه ليس بدعًا من أخلاق الشعراء في ذلك العصر، فقد كان البخل طبعًا مكتسبًا فيهم لم يخل منه إلا أفراد قلائل غيبتهم نشوة الخمر عن الفكر في المستقبل فعاشوا في الحاضر يومًا بيوم، كمسلم ابن الوليد وأبي نواس، والشعراء البخلاء منطقيون مع الحياة. يصنعون ما تصنع النحل والنمل، يدخرون بعض ما يجدون ليوم لا يجدون. لأن موارد أرزاقهم لم تكن مضمونة ولا مأمونة. كانوا يعيشون على صلات الخلفاء وأولي النعمة، ينادمونهم على الشراب، ويفاكهونهم في السمر، ويمالقونهم بالمدح، ويدورون من وراء رضاهم في السياسة والحكم، فهم في خير ما دامت أسبابهم موصولة بالقصر، فإذا انقطعت انقطع رجاؤهم

في العيش. ولم يكن للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم جد أعلى في عصر البحتري يُسنّي لهم طرق العيش الكريم بالتأليف والترجمة والنشر والمعونة، فكانوا بين مجدود كالجاحظ، أو مكدود كالأخفش.

أما الجاحظ فقد سُئِلَ يومًا عن ثروته فتبسم ضاحكًا وأجاب: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها، وخادم، وحمار. وقد أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد.

وأما علي بن سليمان الأخفش النحوي الأديب فقد ضاقت به الحال في أواخر أيامه فسأل أبا علي بن مقلة أن يكلم له الوزير علي بن عيسى عسى أن يجري عليه رزقًا في جملة الفقراء. فلما كلمه انتهره الوزير انتهارًا شديدًا، وأجابه جوابًا غليظًا، وكان ذلك في مجلس حافل، فبلغ ذلك الأخفش فاغتم. وانتهت به الحال إلى أن عاش على السلجم النيئ [1]. ويقال إنه قبض على قلبه من اليأس فمات فجأة.

* * * * *

وفي سبيل المال كان البحتري يحتال ويتدنى وينقل شعره من مقام إلى مقام، ومن ممدوح إلى ممدوح، بعد تغيير تقتضيه الحال، قال يتحدث عن نفسه: " دخلت على المتوكل يومًا وفي يديه درتان لم أر أنقى منهما بياضًا ولا أكبر حجمًا. فأدمت النظر إليهما، ولم أصرف طرفي عنهما. ورآني المتوكل على هذا الحال فرمى إليّ بالتي كانت في يمناه، فقبلت الأرض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعًا في الأخرى فعن لي أن قلت:

بِسُـــرّ مَـــنْ رَا لَنَـــا إمَـــامٌ تَغْـــرِفُ مـــن بَحْـــرِهِ البِحَـــارُ
خَلِيفَـــةٌ يُرْتَجَـــى وَيُخْشَـــى كَأَنّـــــهُ جَنّـــــةٌ وَنَـــــارُ

(1) السلجم: اللفت.

المُلْـــكُ فِيـــهِ، وَفـــي بَنِيـــهِ مـــا اختلـــف اللّيْـــلُ والنّهَـــارُ
يـــداه فـــي الجـــود ضـــرتان هـــذى علـــى هـــذه تَغَـــارُ
وَلَـــيْسَ تـــأتي اليمِـــينُ شَـــيْئًا إلاّ أتَـــتْ مِثْلَهـــا اليَســـارُ

فرمى إليَّ بالدرة التي كانت في يساره وقال: خذها يا عيار!، والعيار المحتال.

وقال أيضًا يتحدث عن نفسه: كنا في مجلس المتوكل ومعنا الفتح بن خاقان، فاعترت المتوكل للفتح هزة من السرور والرضا فقام يقبله، ووثب الفتح فقام فقبل رجليه. والتفت الخليفة إليَّ وقال: قل في الفتح وفيَّ شعرًا. فإني أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي، ولا يفقدني فيذل بعدي، فقل في هذا المعنى، فقلت قصيدة منها:

لا أرتنـي الأيـام فقـدك يـا فـتح ولا عرَّفتـك مـا عشـت فقـدي
أعظـم الـرزء أن تقـدم قبلـي ومـن الـرزء أن تـؤخر بعـدي
حسـدًا أن تكـون إلفـا لغيـري إذا تفـردت بـالهوى فيـك وحـدي

فقال المتوكل: أحسنت والله يا أبا عبادة، وجئت بما في نفسي، وأمر لي بألف دينار، وكنت قد عملت هذه الأبيات في غلام كنت أكلف به، فلما أمرني المتوكل بما أمر، اتنحيت وقلت الأبيات وأريته أني عملتها في وقتي، وما غيرت فيها إلا لفظة واحدة، فإنني كنت قلت: ما أرتني الأيام فقدك ما عشت، فجعلته يا فتح. وقد قتلا معًا وكنت حاضرًا فربحت هذه الضربة. (وأومأ إلى ضربة في ظهره).

وقد قال الصولي: إنه نقل نحوًا من عشرين قصيدة من مدائحه ممن قيلت فيهم إلى غيرهم بعد أن غير أسماءهم مع سعة ذرعه في قول الشعر! وجدوى هذا أن تجاز القصيدة مرتين من غير جهد ولا كلفة.

ويدخل في هذا الباب أمره مع غلامه نسيم، فقد قال أحمد بن جعفر جحظة: "كان نسيم غلام البحتري روميًا ليس بحسن الوجه، فجعله بابًا من أبواب الحيل على الناس، فكان يبيعه ممن ينفق عنده الأدب. فإذا صار في ملكه مدحه وتشوق الغلام وشبب به وتحسر عليه بمثل قوله:

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد أظن نسيمًا قارف الهم من بعدي

خـلا نـاظري مـن طيفـه بعـد شخصـه فيـا عجبًـا للـدهر ! فقـد علـى فقـد

فلا يسع من اشتراه إلا أن يهبه له: ولم تزل تلك حاله حتى مات نسيم فكفى الناس أمره.

* * * * *

وفي سبيل المال تخلق البحتري بأخلاق التجار فسالم الناس ودعا إلى السلم، وعايش الأضداد وبرئ من التحيز، ولابس العقائد والمذاهب والطوائف والعشائر وخلا من التعصب.

ولد في خلافة المأمون ثم تنفس به العمر حتى جاوز الثمانين، فاستغرقت حياته حياة عشرة من الخلفاء تداولوا العرش العباسي وهو يميد من الفتن والخطوب من تفارس الخصوم وتنافس العناصر وتنازع الرؤساء، وهو مضطر إلى مصانعة هؤلاء وهؤلاء ليسلم منهم جميعًا ويغنم منهم جميعًا. فمدح العلوي والعباسي والعربي والتركي والسني والشيعي دون أن يجد غضاضة في نفسه ولا مشقة على ضميره، لأنه يمثل المادح ولا يكونه، ويتخيل الممدوح ولا يعينه، ويقول في المدح ما يقول ولا يعتقده، ومن هنا لم يجد صعوبة ولا حرجًا في أن ينقل القصيدة من ممدوح إلى آخر، ولعله لم يقل الصدق إلا في المتوكل لحبه إياه وإخلاصه له وبلوغه الحظوة والثروة في أيامه حتى قال فيها:

أو مـا تـرى حسـن الزمـان ومـا بـدا وأعـــاد فـــي أيامـــه المتوكـــل

أشـرقن حتـى كـاد يُقتـبس الـدجى ورطـبن حتـى كـاد يجـري الجنـدل

ومن معاني مسايرته ومهاواته أنه لم يتبع سياسة معينة، ولم يعتقد نحلة خاصة، وإنما كان يستن سنة الدولة ويذهب مذهب الحاكم. حدث إبراهيم بن عبد الله الكجي قال: قلت للبحتري ويحك! تقول في قصيدتك التي رثيت بها أبا سعيد: أأفاق صَبٌّ مِنْ هَوىً، فأُفِيقَا:

يرمـــون خـــالقهم بـــأقبح فعلهـــم ويحرفـــون كلامـــه المخلوقـــا

أصرت قدريًا معتزليًا؟ فقال لي: كان هذا ديني في أيام الواثق، يعني (أيام كانوا يقولون بخلق القرآن) ثم نزعت عنه في أيام المتوكل (أي حين نزعوا عن هذا القول).

فقلت له: يا أبا عبادة؛ هذا دين سوء يدور مع الدول.

وقد اتهمته العامة بالثنوية في أيام المعتمد لقوله:

ولـم أر كالـدنيا حليلـة صـاحب محـب متـى تحسـن لعينيـه تطلـق
تراهـا عيانًـا وهـي صـنعة واحـد فنحسـبها صـنعى لطيـف وأخـرق

(والثنوية يقولون بإلهين: إله للخير وإله للشر كما تعلمون) فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث وكان مقيمًا معه: قم يا بني نطفئ هذه النائرة بخرجة نلم بها شعثنا ثم نعود، وهي الخرجة التي زار فيها إيوان كسرى وقال فيه قصدته المعروفة.

والحق أن البحتري كان لنشأته القروية البدوية بعيدًا عن مذاهب الحضريين في الدين والفلسفة، فلا يستمد شعره إلا من إلهام الخاطر ووحي الطبيعة. ومن قوله يخاطب المناطقة:

كلفتمونـا حـدود مسـطقكم والشـعر يغنـي عـن صـدقه كذبـه
ولـم يكـن ذو القـروح يلهـج بـالمنطق مـا نوعـه ومـا سـببه

وفي سبيل المال ركب البحتري الأسفار وهو في طور الحداثة يشهد على ذلك قوله:

وقائلـة والـدمع يصـبغ خـدها رويدك يا ابن الست عشرة كم تسري
فقلت أحق الناس بالعزم والسرى طلابَ المعالي صاحب الست والعشر

وقوله:

تقـاذفني بـلاد عـن بـلاد كـأني بينهـا خبـر شـرود

فطوّف بالشام، وجوّل في العراق، وأوغل في الجزيرة، وبين جنبيه الأمل الحافز، وفي يديه كتب الوصايا التي زوده بها أستاذه أبو تمام إلى الممدَّحين من ذوي المروءات والرياسات في تلك البلاد. ولكنه كان دائب الحنين إلى الشام يستوقد شوقه إليها وافد النسيم من الغرب فيقول لنفسه:

حبـــذا العـــيش فـــي دمشـــق إذا ليلهـــــــــا بـــــــــرد
حيـــــث يُســـــتقبل الزمـــــان ويُستحســـــــــن البلـــــــد

أو يقول للمعتز:

هـل أطلعـن علـى الشـام مـبجلا فـي ظـل دولتـك الجديـد المونـق
شـهران إن يسـرت إذنـي فيهمـا كفـــلا بألفـــة شـــملي المتفـــرق
قد زاد في شوقي الغمام وهاجني زجـل الرواعـد تحـت ليـل مطبـق

أو يقول لأبي الصقر:

تـراك مخلفـي فـي غيـر أرضـي وإنهاضـــي إلـــى بلـــدي يســـير
وأعتقـــت الزمـــان فمـــر بعتقـــي إلـــى بلـــدي، وأنـــت بـــه جـــدير

* * * * *

ذلك بعض ما يفتحه علينا حب المال من شخصية البحتري. أما ما يفتحه حب الجمال منها وهو مفتاحها الآخر فكل ما ينبثق عن روحه ونفسه وقلبه وذوقه من الأعمال والخلال، ولكن هذا المفتاح المعنوي لا يمكن أن يفضي بنا البابُ الذي يفتحه إلى جانب مستقل من حياة الشاعر له مميزاته وخصائصه، فإن العناصر المادية والمعنوية تتقارب وتتضارب وتتفاعل فيؤثر بعضها في بعض، ويتأثر بعضها ببعض، فلا يكون هناك حس محض ولا معنى خالص، فالأناقة التي اشتهر بها البحتري في تنضيد ألفاظه وتنسيق جمله، وهي أثر من آثار حب الجمال، تفارقه في اختيار هندامه وتأثيث بيته، فقد كان كما رووا من أوسخ خلق الله ثوبًا وأداة، ووساخة الثوب وقذارة الأداة أثر من آثار حب المال، وحب الجمال مقتض، وحب المال مانع، والمانع أقوى من المقتضى وأولى. على أن صفة القذارة في الملبس والأثاث تعلل في أيام الفقر والبداوة والتجوال ولكنها لا تكاد تصدق أيام النعمة السابغة والحياة المترفة أيام المتوكل والفتح، إلا إذا كانا يحتملان منه ما كان الوزير المهلبي وزير معز الدولة ابن بويه يحتمل من أبي الفرج الأصبهاني، فد كان المهلبي مترفًا متنطسًا يأنف من أن يأكل بالملعقة لقمتين فكان له عن يمينه خادم يناوله في كل لقمة ملعقة، وعن يساره خادم يأخذها. وكان صاحب

الأغاني يجالسه ويؤاكله، وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله، فيحتمل الوزير ذلك منه لعلمه وحسن حديثه. وحدث يومًا أن المهلبي كان يأكل معه لونًا من ألوان الحلوى صُنع له ونُسب إليه وهو المهلبية، فسعل أبو الفرج سعلة شديدة خرجت نخامة غليظة وقعت في الصحفة، فلم يزد الوزير على أن أمر برفع الصحفة وضع أخرى واستأنف الأكل.

* * * * *

ومن أثر حب البحتري الجمال حبه للطبيعة، فقد فتن بها منذ الحداثة في الغيم والصحو، والجبال والأمواه، والحقول والرياض، كما فتن بروائع الصنعة في القصور الفخمة والأبنية العجيبة كإيوان كسرى وبركة المتوكل وقصر المعتز بالله، وقصائده في وصف هذه البنى أمثلة فريدة في الشعر العالمي. وهل تجدون أبدع وأرق من قوله في وصف ليلة صافية ساجية تلألأت نجومها وتطلق دجاها:

كاد دجى الليل من طلاقته يقمر، والأفق ساقط قمره

ومن أثر حبه للجمال كلفه بالجواري والغلمان، فقد أحب وهو يافع علوة الجلبية وهي من قيان الشام، وكان حبه إياها صبوة من صبوات المراهقة فانتهى بالجفاء منها وبالهجاء منه. ثم رحل إلى العراق فشارك شعراءه في حياة اللهو والمتاع، وتتبع الجمال في مظهريه المؤنث والمذكر: ووصف الحب في حاليه الخيالي والواقع. ولكن حب البحتري كان حب الشهوان العابث لا حب الولهان المتيم. أحب المرأة بحسه لا بنفسه، وتغزل فيها بلسانه لا بقلبه. فمذهبه في الغزل كمذهبه في المدح: يصور أحوال المحبوب، كما يحلل أخلاق الممدوح، ومن ذاكرته وخياله، لا من وجدانه وواقعه، والفضل في إخفاء هذا الزيف عن القارئ إنما هو لبراعة ذهنه، وعبقرية فنه، وواقعية خياله، وقدرته على تصوير النفس الإنسانية تصويرًا مجردًا يصدق جوهره على كل نفس. اسمعوا مثلاً قوله يتغزل:

أصبا الأصائل إن لبرقة تهمد تشكر اختلافك بالهبوب السرمد
لا تتعبي عرصانها، إن الهوى ملقى على تلك الرسوم الهَمد
دمن موائل كالنجوم فإن عفت فبأي نجم في الصبابة يهتدي

فهل تجدون فيما قرأتم أبدع من هذا التصوير وأرق من هذا الوصف وأصدق من هذا الشعور؟ ولكن الذي يكشفه هو أن نسأله: مالك ولبرقة تهمد وليس لك فيها خولة؟![1]

إن زيف الغزل البحتري جاء من زيف حبه، وبعيد أن يحب المرأة الحب الصادق من لا يحترم جنسها ولا يثق به، أليس هو القائل في النساء:

وعلى غيرهن أحزن يعقوب ... وقد جاءه بنوه عشاء
وشعيب من أجلهن رأى الوحدة ... ضعفًا فاستأجر الأنبياء
واستزل الشيطان آدم في ... الجنة لما أغرى به حواء
وتلفت إلى القبائل ونظر ... أمهات ينسين أم آباء
ولعمري ما العجز عندي إلا ... أن تبيت الرجال تبكي النساء

ومن أثر حبه للجمال النفسي حبه للصداقة والصديق. فقد كان لطبيعته المسالمة ونفسيته الشاعرة وحاجته إلى المعونة يطلب الصديق ويحرص عليه ويتعهده وكثرة أشعاره في العتاب والإعتاب تدل على استبقاء الأصدقاء ومعاودتهم. وقصائده في رثاء من ذهب منهم تنبئ عن الحزن عليهم والوفاء لهم. ولقد صادق أبا تمام ودعبلاً والفتح ابن خاقان وأبا العيناء والمبرد ومحمد بن بسام وإبراهيم الصولي والفضل اليزيدي وغيرهم من نوابغ العصر فما ذموا عهده ولا أنكروا وده على الرغم مما يكون بين الأنداد من التنافس والتحاسد. ولكنه كان يقول أحيانًا لمثل المبرد: أحبك ولكن الفن أحب إليَّ منك !.

حدَّث البحتري نفسه قال: خرجت من منزل أبي الصقر (أحد وزراء المعتمد) نصف النهار في تموز، فقلت ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرد، وكان منزلي بعيدًا بباب الشام؛ فجئته، فأدخلني إلى حويشة له، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين وسقاني ماء باردًا، وقال لي: أحدثك إلى أن تنام، فجعل يحدثني أحسن حديث،

---

(1) إشارة إلى قول طرفة ابن العبد في مطلع معلقته:

لخولة أطلال برقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان، فسألته أن أنشدهما، فقال ذلك إليك، وهو يظن أني مدحته بهما، فقلت:

ويوم كحر الشوق في صدر عاشق على أنه منه أحر وأومد
ظللت به عند المبرد قافلا (1) فما زلت في ألفاظه أتبرد

فقال لي: قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تذم: ومالك عندي جزاء إلا أن أخرجك. والغكثة التي اصطادها من الحر ومن معنى المبرد هي التي ورطته هذه الورطة.

كذلك كان من أثر حبه للجمال النفسي حبه العباقرة من كل جنس، يشهد بذلك قوله في سينيته التي وصف بها إيوان كسرى:

وأراني من بعد أكلف بالأشراف طرأ من كل أس وجنس

وكذلك اعتراف بالجميل لأهله، وذلك واضح في قوله من هذه القصيدة نفسها:

عمرت للسرور دهرًا فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع موقفات على الصبابة حُبس
ذلك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنوَّر حُمس

وأمره مع أبي تمام شاهد آخر على أصالة هذا الخلق فيه. فقد رووا أن بعض الناس سمع شعره فقال له: أنت والله أشعر من أبي تمام، فقال والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به. ولوددت أن الأمر كما قلت، ولكني والله تابع له آخذ منه لأند به. نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه. والاعتراف بالجميل والحق دليل على الاعتداد بالنفس والثقة بالقدرة.

* * * * *

(1) قافلا من القيلولة لا من القول .

أما ما نُسِبَ إليه مما ينافي حي الجمال ويجافي سلامة الذوق ففيه نظر وله تأويل، قالوا: إنه كان بغيض الإنشاد، يتشادق ويتزاور في مشيته جانبًا أو القهقري، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى، ويشير بكمه، ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله.

وهذه الحادثة إن صحت لم تقع إلا مرة واحدة كانت في مجلس المتوكل، ولم يروها إلا رجل واحد كان أبا العنبس الصيرمي، وهو رجل ماجن مزاح كان ينادم رضَّاع الكأس فيخترع لهم الأضاحيك ويروي الأفاكيه، قال يروي هذا الخبر لجحظة: " كنت عند المتوكل والبحتري ينشده:

عـــــن أي ثغـــــر تبتســـــم وبـــــأي طـــــرف تحـــــتكم

فكان يتشادق ويتزاور إلى آخر ما وصف. فضجر المتوكل من ذلك وقال لي محياتي أهجه على هذا الذي أنشدنيه. فقلت:

مـــــن أي سَـــــلح تلـــــتقم وبـــــأي كـــــف تلـــــتطم

إلى آخر ما أنشد من ركة وقحة، فالحادثة إذا قبلنا في إثباتها خبر الواحد وهو مجروح بمجونه، مهزلة في مجلس شراب زالت فيه الكلفة وذابت التفرقة وانطلق المكبوت من الوعي الباطن، فما كان من البحتري كان سور كأس ونشوة طرب، وما كان من الصيمري كان فرصة تهريج ونهزة دعابة، وما كان من المتوكل كان عبثًا بالشاعر ولهوًا بالنديم، " والملوك كما قال له الفتح تمزح بأكثر من هذا " على أن المرة الواحدة وإن وقعت في الصحو لا تكسب خَلقًا ولا تنشئ عادة ولا تثبت نقيصة.

* * * * *

هذه أيها السادة صورة تقريبية لشخصية الشاعر الأكبر رسمتها في إطار الزمن المقدر لعرضها عليكم، فإذا أَضفت إليها بعض الصفات الخَلقية التي تجمعت كل صفة منها عن طريق، كقول أبي الفرج: إن لحيته كانت سمراء طويلة، وقول ابن الرومي: إن وجهه كان منسوبًا ذنوبًا[1]، وقول أبي العلاء: إن قدميه كانتا كقدمي ديك[1]، وقول

(1) قال ابن الرومي يهجوه:

الصولي: إن جسمه كان قصدًا بين الطول والقصر وبين السمن والهزال، وإن بدنه كان معافى طول عمره لاعتداله، فلم يشك علة في جسمه، ولا عقدة في نفسه، استطعنا أن نتبين من خلالها على اختلاطها وإجمالها، معارف هذا الفنان العظيم الذي حمل قيثارة الشعر بعد أبى تمام فزاد في أوتارها وتر الوصف الدقيق المصور، وفي ألحانها لحن الغزل الرقيق المعبر، فكان خليقًا بقول صاحب المثل السائر فيه: " أما البحتري فأراد أن يشعر فغنى "، والفضل في فضله إنما كان لأمه الشام مثابة الأدب الخالص والعروبة النقية والإسلام الصحيح، فإنها بفضل ما حباها به الله من زكاوة التربة وأصالة الفطرة وفنون الطبيعة قدمت إلى هيكل الشعر في حبيب والوليد وأحمد (عُزَّاه ولاته ومَناته) كما قال ابن الأثير، وأعادت إلى العرب الخلص سبق الشعر ممن غلبهم عليه من الشعراء الموالي بإنجابها العباقرة الخمسة: أبا تمام، وأبا عبادة، وأبا الطيب، وأبا فراس، وأبا العلاء. فالاحتفال بالبحتري احتفال بها، وتكريم البحتري تكريم لها، والله سبحانه يخلد في رحمته وجنته روح الابن، ويكلأ بعينه وعونه حياة الأم.

=

البحتري زنــوب الوجه نعرفه ولن يكون زنوب الوجه ذا أدب

(1) مفرطحة منفرجة الأصابع.